

الحوار كظاهرة إنسانية

مقتطف من كتاب «نظرات في تربية المعذبين في الأرض»

اخترنا من كتاب باولو فريري «نظرات في تربية المعذبين في الأرض» هذا المقتطف الذي يتحدث فيه عن الحوار كظاهرة إنسانية، وقدرة الحوار على تحويل الوجود الإنساني كوسيلة تواصل ومعرفة. هذا الكتاب الذي صدر عن دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع بالتعاون مع المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، ترجمة مازن الحسيني، الطبعة الأولى، 2003 رام الله.



سنكتشف لدى محاولتنا تحليل الحوار كظاهرة إنسانية شيئاً هو جوهر الحوار نفسه: الكلمة. ولكن الكلمة، أكثر من كونها مجرد أداة، تجعل الحوار ممكناً، ومن ثمّ يتعين علينا أن ننشد عناصرها المكوّنة. نجد في داخل الكلمة بعدين اثنتين، التفكير والعمل في تفاعل راديكالي إلى حد أنه إذا تمت التوضيح بأحدهما - ولو جزئياً - سيتأثر الثاني حتماً. لا توجد هناك كلمة حقيقية دون أن تكون في الوقت ذاته ممارسة Praxis. وهكذا فإن النطق بكلمة حقيقية هو القيام بتحويل العالم.

إن الكلمة غير الحقيقية، تلك التي تعجز عن تحويل الواقع، تتأتى عندما يُفرض الانفصام Dichotomy على عناصرها المكوّنة. وعندما يجري تجريد الكلمة من بُعدها الخاص بالعمل يتأثر التفكير بشكل أتوماتيكي، وتتحول الكلمة إلى ثرثرة عيشية، إلى تصنيف كلام بلا فائدة، إلى لغو مغترب ويحمل على الاغتراب، تصبح كلمة فارغة، لا تستطيع التنديد بالعالم، لأن التنديد يستحيل دون التزام بالتحويل، ولا يوجد تحويل بلا عمل.

من الناحية الأخرى، إذا تم التركيز على العمل وحده على حساب التفكير، تتحول الكلمة إلى نوع مما يمكن تسميته بـ «الجهاد السياسي» Activism. هذا المنحني الأخير - العمل من أجل العمل - ينفي الممارسة الحقيقية، ويجعل الحوار أمراً مستحيلًا. وكلا الانفصامين يؤديان - بخلق أشكال وجود غير حقيقية - إلى خلق أشكال فكر غير حقيقية أيضاً تعزز الانفصام الأصلي.

عملية خلق، ويجب ألا يتحول إلى أداة ذكية لسيطرة شخص على آخر. فالسيطرة التي ينطوي عليها الحوار ضمناً هي السيطرة على العالم من قبل المتحاورين. إنه غزو للعالم من أجل تحرير الناس.

الأ أن الحوار لا يمكن أن يتوفر في غياب حب عميق للعالم وللناس. فتسمية العالم، التي هي عملية خلق وإعادة خلق، غير ممكنة إذا لم تكن مفعمة بالحب². فالحب هو، في الوقت ذاته، أساس الحوار، وكذلك الحوار ذاته. وبالتالي، هو بالضرورة مهمة «فاعلين» مسؤولين، ولا يمكن أن توجد في علاقة سيطرة، إذ أن السيطرة تكشف عن الأمراض التي تحل بالحب: السادية فيما يتعلق بالشخص الذي يسيطر، والتلذذ بالألم والمذلة فيما يتعلق بضحية السيطرة. ولأن الحب هو عملية شجاعة، وليس عملية خوف، فهو التزام بالآخرين. وبغض النظر عن مكان تواجد المضطهدين، فإن عملية الحب التزام بقضيتهم، قضية التحرر. وهذا الالتزام هو «حواري» لأنه مشبع بالحب. ولأن الحب عملية شجاعة لا يمكنه أن يكون عاطفياً، ولكونه عملية تحرر أخرى، لا يمكن أن يكون مبرراً للتلاعب والغش، بل يجب أن يولد أعمال تحرر أخرى، وإلا فلن يكون حياً. ومن الممكن استعادة الحب فقط بإلغاء وضع الاضطهاد، ذلك الوضع الذي جعل الحب أمراً مستحيلًا. فإذا لم أحب العالم - إذا لم أحب الحياة - إذا لم أحب الناس، فلن أستطيع الدخول في حوار.

ومن الناحية الأخرى، لا يمكن للحوار أن يوجد دون تواضع. فتسمية العالم، ذلك العمل الذي يقوم الناس من خلاله بخلق العالم وإعادة خلقه باستمرار، لا يمكن أن تكون عملية عجرفة. وسيتوقف الحوار، باعتباره مواجهة بين أشخاص منكميين على مهمة مشتركة، هي اكتساب العلم والعمل، إذا افتقر إلى التواضع. فكيف بوسعي التحاور إذا كنت ألصق الجهل دوماً بالآخرين ولا أدرك على الإطلاق جهلي؟ كيف بوسع التحاور إذا كنت أعتبر نفسي مختلفاً عن بقية الناس وأعتبر الآخرين مجرد «أشياء» لا أجد بينهم «أنا» آخر؟ كيف بوسعي التحاور إذا كنت أعتبر نفسي عضواً في مجموعة من «الخلصاء» من الناس «الأنقياء» الذين يملكون الحقيقة والمعرفة،

ولا يمكن للوجود الإنساني أن يكون صامتاً، كما أنه لا يمكن أن يتغذى بكلمات زائفة، ولكن بكلمات حقيقية يحورّ الناس بها العالم. فالوجود - إنسانياً - هو أن تُسمّي Name العالم، أن تغيره. ويعد أن تجري تسميته، يعود العالم بدوره، إلى الظهور مجدداً لمن قاموا بتسميته كمشكلة، ويحتاج منهم إلى تسمية جديدة. إن الناس لم يتم بناؤهم في صمت¹، بل بالكلمة والعمل، بالنشاط والتفكير.

ولكن بما أن قول الكلمة الصحيحة - التي هي العمل والتي هي الممارسة - هو القيام بتحوير العالم، فإن قول تلك الكلمة ليس امتيازاً لبعض الأشخاص قليلي العدد، بل هو حق لكل إنسان. وبالتالي، لا يستطيع أي امرئ أن يقول الكلمة الحقيقية بمفرده، كما أنه لا يستطيع قولها نيابة عن شخص آخر في عمل إيعازي يسلب الآخرين كلماتهم.

الحوار هو مواجهة بين الناس، يكون العالم فيه الوسيط، من أجل تسمية العالم. ومن ثم فإن الحوار لا يمكن أن يقع بين أولئك الذين يريدون تسمية العالم وأولئك الذين لا يرغبون في تسميته. بين أولئك الذين يحرمون الآخرين قول كلمتهم وأولئك الذين حُرّموا من حقهم في الكلام. فأولئك الذين حُرّموا من حقهم الأساسي في قول كلمتهم، عليهم أولاً استعادة هذا الحق ومنع استمرار هذا العدوان الذي يُجرّد من الإنسانية، وإذا كان الناس يقومون بتسمية العالم وتحويره من خلال قول كلمتهم، فعندئذ يفرض الحوار نفسه كالوسيلة التي يحقق الناس من خلالها أهميتهم كأناس. وبالتالي فإن الحوار ضرورة وجودية. وبما أن الحوار هو المواجهة التي يجري من خلالها توجيه الفكر والعمل المتحدّين للمتحاورين إلى العالم، الذي سيجري تحريره وإضفاء الإنسانية عليه، لذلك لا يمكن اختزال الحوار إلى قيام شخص به «إيداع» أفكار في شخص آخر، كما أنه لا يمكن أن يصبح مجرد تبادل أفكار «يستهلّكها» المتناقشون. وهو ليس تبادل حجج عذائية وجدالاً بين أشخاص غير ملتزمين بـ «تسمية» العالم أو بالبحث عن الحقيقة، بل يفرض «حقيقتهم» الخاصة. وبما أن الحوار هو مواجهة بين أشخاص يقومون بـ «تسمية» العالم، يجب ألا يكون حالة يقوم فيها بعض الأشخاص بـ «تسمية» العالم نيابة عن آخرين. إن الحوار

1- من الواضح أنني لا أتحدث عن صمت التأمل العميق، الذي كما يبدو فقط أن المرء «يخرج» من العالم، وينسحب منه كي يفكر به في مجمله، ويكون، هكذا، قد بقي فيه. ولكن هذا النوع من «الاعتكاف» يكون حقيقياً فقط عندما يكون المتأمل «منغمساً» في الواقع، وليس عندما يكون الاعتكاف تعبيراً عن ازدراء للعالم وهرباً منه، في نوع من «مرض الانفصام التاريخي».

2- نبي أزداد قناعة بأن على الثوريين الحقيقيين أن يستوعبوا الثورة على أنها عملية حب، بسبب طبيعتها الخلاقة والمُحرّرة. وبالنسبة لي فإن الثورة، التي لا يمكن أن تتحقق دون نظرية ثورية - وبالتالي علم - لا تتنافى مع الحب. بل على العكس: الثورة يقوم بها الناس من أجل تحقيق إنسانيتهم. فما هو، في الواقع، الدافع الأقوى من تجريد الإنسان من إنسانيته الذي يمكن أن يدفع الأشخاص لأن يصبحوا ثوريين؟ إن التشويه المفروض على كلمة «حب» من قبل العالم الرأسمالي لا يمكن أن تمنع الثورة من أن تكون بالأساس «محية» في طبيعتها، كما لا يمكن أن تمنع الثوريين من التأكيد على جبههم للحياة. ولم يخش جيفارا (مع اعترافه «بخطر أن يبدو سخيفاً») من تأكيد ذلك: «دعوني أقول - رغم احتمال أن أبدو سخيفاً - إن الثوري الحقيقي يهتدي بمشاعر حب عميقة، فمن الصعب تصوّر ثورياً حقيقياً، من غير أن تكون له هذه الصفة». (راجع: Venceremos- The Speeches and Writing of Che Guevara edited by John Gerassi (نيويورك، 1969) ص. 398)

«البنكي». فبينما الإيمان بالإنسان هو مطلب مُسلم به للحوار، فإن الثقة يتم بناؤها من خلال الحوار. وإذا تعثرت وسقطت سيوضح أن الشروط كانت مفقودة. فالحب الزائف والتواضع الزائف والثقة الضعيفة بالإنسان لا يمكن أن تولد ثقة، إذ أن الثقة تتوقف على الدليل الذي يقدمه طرف إلى الأطراف الأخرى عن نواياه الحقيقية الملموسة، ولكنها لن تتوفر إذا كانت أقوال ذلك الطرف لا تتطابق مع أفعاله. فقولته شيء وفعله شيء آخر - حمل المرء أقواله محملاً غير جدي - لا يمكن أن يبعث على الثقة. كما أن تمجيد الديمقراطية وتكسيم أفواه الناس هو مهزلة، وكذلك الحديث عن الإنسانية ومن ثم إنكار الإنسان ما هو إلا أكذوبة.

لا يمكن للحوار أن يوجد دون وجود أمل. فالأمل متجنز في عدم اكتمال الناس، عدم الاكتمال ذلك الذي يخرجون منه في عملية بحث مستمر، بحث يمكن أن يجري فقط في صحة أناس آخرين. وما اليأس إلا شكل من أشكال الصمت، شكل من أشكال إنكار العالم والهروب منه. وليس التجريد من الإنسانية الناجم عن نظام غير عادل سبباً لليأس، بل يجب أن يدفع إلى الأمل الذي يؤدي إلى سعي دؤوب لتحقيق الإنسانية التي ينكرها الظلم. ولكن الأمل لن يتأتى بتكليف الأيدي والانتظار. فما دمت أكافح سيحركني الأمل، وإذا كافحت والأمل يحدوني، فيوسعي، عندئذ، الانتظار. إذ أن الحوار، باعتباره مواجهة بين أناس يسعون لأن يكونوا أكثر اكتمالاً إنسانياً، لا يمكن أن يجري في جو من اليأس. وإذا كان المتحاورون لا يتوقعون أن تؤتي جهودهم أية ثمار، ستكون المواجهة فارغة عقيمة، بيروقراطية متعبة.

وأخيراً لا يمكن أن يجري حوار حقيقي إلا إذا قام المتحاورون بالتفكير بشكل انتقادي، تفكير يظن إلى أن التضامن بين العالم والإنسان غير قابل للتجزئة ولا يقر بأي انفصام بينهما، تفكير يفهم الواقع على أنه عملية تحول، بدلا من كيان ساكن - تفكير لا يفصل نفسه عن العمل، وينغمس باستمرار في الدنيوية دون خوف من المخاطر التي ينطوي عليها ذلك. إن التفكير الانتقادي نقبض للتفكير الساذج الذي يرى في «الزمن التاريخي ثقلاً، تراكمًا وتنضيداً لممتلكات وتجارب الماضي»³، التي يجب أن يبرز الحاضر منها وقد أصبح طبيعياً و«حسن السلوك». والشيء المهم بالنسبة للمفكر الساذج هو التكيّف مع هذا «اليوم» الذي «تطّبع». أمّا بالنسبة للناقد، فإن الشيء المهم هو التحوير المستمر للواقع لصالح استمرار «أنسنة» الناس. وكما يقول الكاتب بيير فورتر: «لن يكون الهدف بعد هو إزالة أخطار الدنيوية من خلال التشبث بالفضاء المضمون،

ويعتبرون كل من هم ليسوا أعضاء «أولئك الناس» أو «تلك الجموع القذرة»؟ كيف بوسعي التحوار إذا كانت نقطة البدء بالنسبة لي هي أن تسمية العالم هي مهمة النخبة، وأن وجود الشعب في التاريخ هو علامة على الانحطاط التي يجب تفاديها؟ كيف بوسعي أن أتحوار إذا كنت رافضاً لمشاركة الآخرين - بل إنها تثير استيائي؟ كيف يمكن لي أن أتحوار إذا كنت خائفاً من أن أزاح وأعزل، وبسبب لي مجرد هذا الاحتمال العذاب والضعف؟ إن الاكتفاء الذاتي لا يتلاءم مع الحوار. فالأشخاص الذين يفتقرون إلى التواضع (أو فقدوه) لا يمكنهم التوجه إلى الناس، لا يمكنهم أن يكونوا شركاء الناس في تسمية العالم. فمن لا يستطيع أن يقر بأنه آيل إلى الزوال، مثله مثل بقية الآخرين، ما زال أمامه طريق طويل يقطعه قبل أن يصل إلى نقطة المواجهة. وعند نقطة المواجهة لا يوجد جهلة تماماً أو حكماء كاملون. هنالك فقط من يحاولون التعلّم معاً أكثر مما يعرفونه الآن.

بالإضافة إلى ذلك يحتاج الحوار إلى إيمان عميق بالإنسان، إيمان بقدرته على صنع الأشياء وإعادة صنعها، على الخلق وإعادة الخلق، إيمان بمهمته في أن يصبح أكثر اكتمالاً إنسانياً (الذي هو ليس امتيازاً للنخبة، بل حق بالولادة لجميع الناس). إن الإيمان بالإنسان هو من المقتضيات المسلم بها للحوار. ف«الشخص المحاور» يؤمن بالناس الآخرين حتى قبل أن يقابلهم وجها لوجه. إلا أن إيمانه ليس إيماناً ساذجاً. ف«الشخص المحاور» شخص انتقادي، ويعرف أنه رغم قدرة الناس على الخلق والتغيير، من الممكن أن يعجزوا عن استخدام تلك القدرة في حالة «اغتراب» معينة. ومع ذلك، وبدلاً من أن يحطم هذا الاحتمال إيمانه بالإنسان، يبدو له كتحد يتعين الرد عليه. وهو مقتنع بأن القدرة على الخلق والتغيير، حتى وإن جرى إحباطها في أوضاع معينة، لا بد لها من أن تولد من جديد. وأن تلك الولادة لا يمكن أن تحدث مجاناً، بل من خلال النضال، النضال من أجل التحرر ومن خلاله - من خلال حلول العمال الأحرار محل العمال المستعبدين، مما يضيء لذة على الحياة. وبدون هذا الإيمان بالإنسان، يكون الحوار مهزلة وينحط بكل تأكيد إلى مصاف التلاعب والغش الأبوي.

إن الحوار بصفته قائماً على الحب والتواضع والإيمان، يتحول إلى علاقة أفقية، عاقبتها المنطقية هي الثقة المتبادلة بين المتحاورين. سيكون ثمة تناقض في التعبير لو لم يسفر الحوار - المُحب المتواضع والمليء بالإيمان - عن خلق هذا الجو من الثقة الذي يؤدي بالمتحاورين إلى شراكة أوثق في عملية تسمية العالم. وبالعكس فمن الواضح إن مثل هذه الثقة مفقودة في ظروف العداة للحوار الملازم لأسلوب التعليم

النظر هذه، الحبلى بالقلق والشكوك والآمال أو باليأس، على مواضيع هامة يمكن بناء محتوى برنامج التعليم استناداً إليها. وغالباً ما تقوم المشاعر الإنسانية التي تم التوصل إليها بشكل ساذج - استجابة لرغبتها في خلق نموذج مثالي «للإنسان الطيب» - بتجاهل الوضع الوجودي الحالي الملموس للناس الحقيقيين. والإنسانية الحقيقية، كما يقول بيير فورتير «تتألف من السماح بظهور الوعي بإنسانيتنا الكاملة كشرط وكواجب، كوضع وكمشروع»⁶. فنحن لا نستطيع ببساطة الذهاب إلى العمال - الحضريين أو الفلاحين⁷ بالأسلوب «البنكي» لإعطائهم «المعرفة»، أو لفرض نموذج «الإنسان الطيب» عليهم الوارد في البرنامج الذي قمنا نحن أنفسنا بإعداد محتواه. فالعديد من البرامج السياسية والتعليمية قد فشلت لأن الذين أعدوها قاموا بتصميمها وفق نظرتهم الخاصة للواقع، ودون أن يأخذوا، ولو مرة واحدة، بالحسبان - إلا كأهداف لعملهم - الأشخاص الذين هم في الوضع الذي وجه إليه، كما هو واضح، البرنامج الذي أعدوه.

إن هدف العمل والنشاط بالنسبة للمربي الإنساني الحقيقي والثوري الحقيقي هو الواقع الذي سيقومان بتحويله سوية مع الناس الآخرين، ولكن ليس «الآخرين» الذين هم أنفسهم. إن المضطهدين هم أولئك الذين يستهدفون في عملهم الناس الذين يلقونهم ويحملونهم على التكيف مع واقع يجب أن يظل على ما هو عليه بلا مساس. إلا أن القادة الثوريين، لسوء الحظ، غالباً ما ينساقون - نتيجة رغبتهم في الحصول على تأييد الشعب للعمل الثوري - وراء الخط «البنكي» في تخطيط محتوى البرنامج من أعلى إلى أسفل. فهم يتوجهون إلى الفلاحين أو الجماهير في المدن بمشاريع قد تتطابق ونظراتهم الخاصة، وليس نظرة الشعب إلى العالم⁸. وينسون أن هدفهم الأساسي هو الكفاح إلى جانب الشعب لاستعادة إنسانية

بل القيام بتحويل الفضاء إلى شيء مؤقت... لا يظهر الكون لي كفضاء يفرض وجوداً هائلاً ليس لي إلا أن أتكيف معه بل كمجال يتشكل عندما ينصب عملي عليه»⁴. والهدف بالنسبة للتفكير الساذج هو بالتحديد التمسك بهذا الفضاء والتلاؤم معه، وبنكرانه للديوية يقوم بنكران نفسه أيضاً.

إن الحوار وحده، الذي يتطلب تفكيراً انتقادياً، قادر أيضاً على توليد التفكير الانتقادي. دون حوار لا يوجد تواصل، ودون تواصل لا يمكن أن يوجد تعليم حقيقي. والتعليم القادر على حل التناقض بين المعلم والطالب يتم في وضع يقوم فيه الاثنان بتوجيه عملية معرفتهم إلى الشيء الذي يتم من خلاله التوسط لهما. وهكذا، فإن الطابع الحوارى للتعليم، باعتباره ممارسة الحرية، لا يبدأ عندما يتقابل المعلم الطالب مع الطالب المعلم في وضع تربوي، بل عندما يسأل الأول نفسه ما الذي سيتحاور حوله مع الثاني. ومن ثم فإن الاهتمام بمحتوى الحوار هو في الواقع اهتمام بمحتوى برنامج التعليم.

إن قضية المحتوى بالنسبة للمربي «البنكي» المعادي للحوار تتعلق ببساطة بالبرنامج الذي سيتحدث عنه إلى طلابه، ويقوم بالإجابة على سؤاله بإعداد وتنظيم برنامجه الخاص. خلافاً للمعلم الطالب المحاور الذي يطرح المشاكل. إن محتوى برنامج التعليم ليس هبة أو شيئاً مفروضاً - تنفا من المعلومات يجري إيداعها بالطلاب - بل «إعادة تقديم» منظمة ومنسقة ومطورة لأشياء إلى آخرين يريدون معرفة المزيد عنها⁵.

التعليم الحقيقي لا يقوم به «أ» من الناس لصالح «ب» منهم أو «أ» من الناس عن «ب» منهم، ولكن يقوم به «أ» مع «ب» ويتوسط العالم بينهما، عالم يثير إعجاب الطرفين ويتحداهما، مما يؤدي إلى بروز وجهات نظر أو آراء حوله. وتنطوي وجهات

4- بيير فورتير، Educacao e Vida، (ريو، 1966) ص 26-27.

5- قال ماوتسي تونج خلال حديث طويل مع مالرو «إنك تعرف أنني قلت منذ فترة طويلة: يجب علينا تعليم الجماهير بوضوح ما تلقيناه منها بشكل مشوش». راجع: أندريه مالرو Anti-Memoris (بيوبورك 1968)، ص 361-362. يحتوي هذا التأكيد على نظرية «حوارية» كاملة فيما يتعلق بكيفية إعداد محتوى برنامج التعليم الذي لا يمكن إعداده وفق ما يعتقد المربي أنه الأفضل لطلاب.

6- فورتير، المصدر الذي سبق ذكره، ص 165.

7- إن الأخيرين الغارقين، في العادة، في سياق كولونيالي، يرتبطون ارتباطاً لا ينفصم بعالم الطبيعة، ويشعرون، بالنسبة له، أنهم أجزاء المكونة بدلا من كونهم من شُكله.

8- «يتعين على عمالنا المُثقفين أن يخدموا الشعب بحماس وإخلاص عظيمين، ويجب أن يرتبطوا بالجماهير وألا يبعدوا بينهم وبين الجماهير. وكي يحققوا ذلك، يجب عليهم العمل وفق احتياجات الجماهير ورغباتها. فكل عمل يتم لصالح الجماهير يجب أن يبدأ من احتياجاتها، وليس من رغبة أي فرد، مهما كانت نواياه حسنة. وغالباً ما يحدث أن الجماهير تحتاج موضوعياً لتغيير معين، ولكنها ذاتياً ليست واعية بهذه الحاجة، وليست مستعدة أو مصممة على القيام بالتغيير. في مثل هذه الحالات يتعين علينا الانتظار بصبر. يجب ألا نقوم بالتغيير إلى أن تعي غالبية الجماهير، من خلال عملنا، بالحاجة إلى التغيير وتبدد الاستعداد وتقرر القيام به، وإلا سنعزل أنفسنا عن الجماهير... يوجد هنا مبدأ: الأول هو الاحتياجات الفعلية للجماهير بدلا من أن نقوم نحن أنها تحتاجه، والثاني هو رغبات الجماهير التي يجب أن تقرر، بدلا من أن نقوم نحن بحملها على التقرير. من:

Selected Works of Mao-Tse Tung, Vol. III. (The United Front in Cultural Work), (October 30, 1994), (Peking, 186 - 187 ص)

وشكوكه وآماله ومخاوفه - برامج تزيد أحياناً، في الواقع، مخاوف الوعي المضطهد. فليس من دورنا أن نتحدث للشعب عن رؤيتنا للعالم، أو أن نحاول فرض تلك الرؤية عليه، بل علينا أن نتحاور مع الشعب عن رؤيته ورؤيتنا. يجب علينا أن ندرك أن رؤية الشعب للعالم، التي تنعكس بأشكال مختلفة في أعماله، تعكس وضعه في العالم. والعمل التعليمي والسياسي الذي لا يدرك بشكل انتقادي هذا الوضع، يواجه خطراً إما أن يكون «بنكياً» أو أن يقوم بالتبشير في الصحراء.

وغالبا ما يتكلم المربون والساسة، ولكن لا يهم فهمهم، لأن اللغة التي يستخدمونها لا تتماشى مع الوضع الملموس للأشخاص الذين يخاطبونهم. وبالتالي، يكون كلامهم مجرد بلاغة «مغترية» وتدفع إلى الاغتراب. فلغة المربي أو السياسي (يبدو من الواضح أكثر فأكثر أنه يتعين على الأخير أن يصبح هو أيضا مربيا بالمعنى الواسع للكلمة)، مثلها مثل لغة الشعب، لا يمكن أن توجد دون تفكير، كما أنه لا يمكن أن توجد اللغة أو الفكر دون بنية مرجعية. ويتعين على المربي والسياسي، كي يتواصلا مع الناس، بشكل فعال، أن يفهما الظروف البنوية التي يجري فيها تشكيل فكر ولغة الشعب جديلاً.

يجب علينا التوجه إلى الواقع الذي يتوسط بين الناس، وإلى إدراك ذلك الواقع لدى المربين ولدى الشعب، حتى نجد محتوى برنامج التعليم. فالبحث والتمحيص فيما أطلقت عليه اسم «الكون ذي الموضوعات» Thematic Universe¹⁰ وهو مركب «الموضوعات المنتجة» Generative Themes لديهم - يدشن حوار التعليم، باعتباره ممارسة للحرية. ويجب أن يكون منهاج البحث كذلك منهاج حوار، يتيح الفرصة لاكتشاف «الموضوعات المنتجة» ولحفز وعي الناس فيما يتعلق بتلك الموضوعات. وتمشيا مع الهدف التحرري للتعليم الحواري فإن الإنسان ليس هدف البحث والاستقصاء (كأن الناس هي قطع للتشريح)، بل لغة الفكر التي يستخدمها الناس في الحديث عن الواقع، والمستويات التي يقومون فيها بإدراك ذلك الواقع، ورؤيتهم للعالم الذي يجري فيه العثور على موضوعاتهم المنتجة).

الشعب المسلوب، وليس «كسب الشعب» إلى صفهم. مثل هذا القول لا يمكن أن ينتمي إلى مرادفات القادة الثوريين، بل إلى ما يصدر عن المضطهدين. فدور الثوري هو أن يحرر ويتحرر مع الشعب، ليس كسب الشعب إلى صفه. تستخدم النخب المسيطرة، في نشاطها السياسي، المفهوم «البنكي» لتشجيع السلبية بين المضطهدين، مما يتمشى مع وضع وعي الأخيرين «الغارق»، ويستغلون تلك السلبية «للم» ذلك الوعي بشعارات تولد مزيداً من الخوف من الحرية. وهذا العمل لا يتلاءم مع نهج عمل تحرري حقاً، الذي يساعد المضطهدين، بتقديمه شعارات المضطهدين على شكل قضية، على «لفظ» تلك الشعارات من داخلهم. ففي نهاية المطاف إن مهمة الإنسانين هي، بكل تأكيد، ليس طرح شعاراتهم ضد شعارات المضطهدين، مع وجود المضطهدين كأرضية اختبار «تؤوي». أولاً شعارات مجموعة، ثم شعارات المجموعة الثانية، بل على العكس إن مهمة الإنسانين هي أن يعي المضطهدون حقيقة أنهم لن يتمكنوا، ككائنات ذات ازدواجية «تؤوي» في داخلها المضطهدين، من أن يصبحوا إنسانيين حقاً.

تعني هذه المهمة أن القادة الثوريين لا يذهبون إلى الشعب من أجل أن يحملوا له رسالة «الخلاص» بل كي يعرفوا من خلال الحوار معه وضعه الموضوعي ووعيه بذلك الوضع - المستويات المختلفة لإدراكهم لأنفسهم وللعالم الذين يوجدون فيه ومعه. ولا يمكن للمرء أن يتوقع نتائج إيجابية من برنامج عمل تعليمي أو سياسي يفشل في احترام النظرة الخاصة للعالم التي يحملها الشعب، فمثل هذا البرنامج يشكل غزواً ثقافياً، رغم النوايا الطيبة.

يجب أن تكون نقطة البدء في إعداد محتوى برنامج العمل التعليمي أو السياسي هي الوضع الوجودي الحالي الملموس، الذي يعكس تطلعات الشعب. ويجب علينا، باستخدامنا بعض التناقضات الأساسية - طرح هذا الوضع الوجودي الملموس الحالي على الشعب كمشكلة تتحدها، وتتطلب رداً، ليس على المستوى الفكري فحسب، بل أيضاً على مستوى العمل والنشاط⁹.

ويجب علينا ألا نتحدث أبداً عن الوضع الحالي، وألا نقدم للشعب برامج لها صلة ضعيفة أو لا صلة لها على الإطلاق باهتماماته

9- سيتناقض قيام الإنسانين الحقيقيين باستخدام الأسلوب «البنكي» مثل تناقض اليمينيين مع أنفسهم إذا ما استخدموا التعليم الذي يطرح مشاكل وقضايا. (إلا أن اليمينيين ثابتو المنهج على الدوام، فهم لا يستخدمون على الإطلاق التربية التي تطرح مشاكل وقضايا).

10- يستخدم تعبير «الموضوعات ذات المغزى» بالدلالة نفسها.